

صفحة ذهبية من تاريخ لبنان

البطرك اللبناني

لياس بطرس الحويك

١٨٤٢-١٩٣١

يقلم الحوي منصور عواد عواد

٢

### الاسقف

ان المدة الطويلة التي قضاها الحويك في المقر البطريركي ، سواء أكان كاهناً او مطراناً ، اكسبته بشؤون الطائفة المارونية الداخلية والخارجية وحاجاتها وما يستلزم لبنان في اموره السياسية والادارية والاقتصادية خبرة عزت نظيرها عند سواه . فما اذف الوقت المناسب ، ودقت ساعة النهاية ، وازدادت الثقة به بالاسقفية التي ارتقى اليها ، حتى شرع يحقق افكاره الاصلاحية دون ذوي ولا طين بل يهدوه ورباطة جأش كمادته .

عرف باختباره الطويل ان كثيراً من الفتيات اللبنانية لا يزلن محرومات من التهذيب الضروري الذي يرفع مستواهن الى المقام اللائق بين الواجب لمن ، وعرف ان اساس التربية العائلية هو المرأة ، فاذا كانت هذه مهذبة امكنا ان تهذب الناشئة اللبنانية ولاسيما المارونية تهذيباً ضرورياً للعالم وللآخرة . ورأى ان من اتفق الوسائل لذلك انشاء جمعية من الراهبات الوطنيات ، لا المحصنات او المعجوسات المتقطعات عن العالم الى الحياة التوسكية في صوامعهن كما كان المألوف في الطائفة والشرق حتى ذلك العهد ، بل بجمعية من الراهبات اللواتي يخصصن لخدمة الفتاة في العالم بحياة تجمع بين الكمال الروحي في التأمل والصلاة ، والحياة الروحية قيد التدور والقوانين الرهبانية ، وبين الكمال العملي بخدمة القريب وتعليم

الثقافة وترويضها في امور الدين والآداب ، وبالمعيشة في وسط العالم مع الترفع بالروح وبطريقة الحياة عن كل ما هو عالمي .

وتقرر لديه ان الشعب الماروني لا يترقى ولا يبقى الدين الكاثوليكي تراث الجدود الثمين بل الاثمن راسخاً فيه رسوخ جباله الا بتهديب اكليروسه التهديب العالمي الكامل ، وما ذلك الا لان الكهنة هم قادة الشعب ووعاته . فاذا كان القائد قديراً مدرباً عالماً واذا كان الراعي جديراً برعاية الناس لاسيا النفوس ، استطاع ان يقود رعيته الى المراعي الخصبة فينيرها بهلومه ويوئدها بسديد آرائه ويشبع قلوبها بفضائله ويستميلها بمثله الصالح الى الفضيلة والى الله . وادرك ان الطائفة المارونية منذ أقفلت مدرستها في رومية في مستهل القرن التاسع عشر ، مجلول جنود نابوليين الاول فيها اثناء احتلاله للمملكة الرومانية البابوية ، خسرت قوة عظيمة لان طلبة تلك المدرسة هم من الذين دفعوا المستوى اللبناني واخص منه الماروني الى رقيه ومجده الحقيقيين وجعلوا من الطائفة المارونية في الشرق حديقة غناً زاهرة بالهلوم . ففكر في ضرورة ارجاع تلك المدرسة القديمة الى الوجود .

ولهذا ما ان انتدبه الخالد الذكر سلفه البطريرك يوحنا الحاج ليذهب الى رومية في ٢٨ نيسان سنة ١٨٩٠ لتأدية فروض الطاعة والخضوع بالنيابة عنه لقداسة امام الاحبار البابا لاوون الثالث عشر ، ولطلب درع الرئاسة وبراعة التثبيت عملاً بما ترسه الواجبات الكنسية التقليدية ، حتى كاشفه بافكاره ؛ فقوض اليه ان يصي لتحقيق تلك الافكار البامية وخاصة فكرة تجديد المدرسة المارونية ، التي كان قد سمى قبله وراة تحقيقها بطاركة الطائفة وبمض اجارها ؛ فاتفقوا ، ثم قلده السلطة اللازمة لتلك المساعي الخطيرة .

فما ان اتم مهمته في رومية وبعث بالدرع والبراعة الى السيد البطريرك حتى تخلف في عاصمة الكتلركة وشتر عن ساعد الجد في سبيل احياء المدرسة المارونية القديمة الشهيرة وبمها من لهدها . فتوفق جد التوفق باكتساب عطف قداسة البابا ومساعدته وترود باجازة منه ومن مجمع انتشار الايمان المقدس بل بتوصيات تدل على مبلغ ثقة السدة الرسولية به ثم توجه الى فرنسة بلاد الاحان ،

وقبله الموارنة في كل عصر وخاصة منذ عهد الملك القديس لويس التاسع ،  
 فزار الشعب والرؤساء والحكومة . فاعجب كرادلة فرنسة واساقفتها بتجرده وسمة  
 نظره ، واحبه شعبها لدعته وفضائله ، وقدره رجال الحكومة قدره لصدقه  
 وصراحته وسمة اختياره وصدق نظرياته السياسية والادارية . فاقنع الحكومة  
 بوجود التفويض على الموارنة مما أتزل بدرستهم الرومانية القديمة من الخراب  
 بسبب احتلال الجيوش الافرنسية عندما احتلوا رومية في مطلع القرن ،  
 وخطاب الشعب والاساقفة واطلمهم على حاجة الموارنة الى مدرسة عالية تهذب  
 اكليروسه في عاصمة الكتلكتة وكان يجول من رعية الى اخرى ، ومن  
 ابرشية الى ابرشية ، يلازمه في اسفاره الحوري يولس بصوص ورافقه شاهداً على  
 عزة نفسه وتجرده واتمابه الشاقة ، يد يده الى جمع التبرعات قائلاً للشعب  
 الافرنسي : ان الشعب الذي يرسل بنيه الى جميع اقطار المسكونة تهذيب  
 العالم ورده الى الدين الكاثوليكي لا نخجل ان نغذ اليه يدنا ليجود علينا بما له  
 احياء لمدارسنا ومشاريعنا التهذيبية . لانه شعب متعود البذل في سبيل الكنيسة  
 والله والطم ، ونحن لنا دالة خاصة على فرنسة حيث ان الشرق يلقب الشعب  
 الماروني بفرنسة الشرق وما ذلك الا لارتباطنا برابطة حسب قديم لا تنفصم ،  
 مع هذا الشعب النبيل .

قلبت الحكومة الافرنسية بارميجية اذ عيّنت للطائفة المارونية ثمانية كراس  
 مجانية لثمانية اكليريكين في مدرسة سان سوليس الطائفة الشهيرة في باريس ،  
 وممبداً في قصر ليكسومبورغ ليقم فيه الموارنة تزيلاً . باريس واجباتهم الدينية .  
 ولباه الشعب باكثر ارميجية وسخاء فجمع مبلغاً لا يُستهان به لتجديد مدرسة  
 رومية . وكان يبعث بالتبرعات الى مجمع انتشار الايمان او الى قداسة البابا رأساً  
 حرصاً على حسن سمته لئلا يُقال او يُظن انه يجمع لنفسه او لينتفع بشكل  
 من الاشكال . وهذا كان من الامور التي زادت اعجاب البابا به ، وجمع انتشار  
 الايمان واساقفة فرنسة وكرادلتها تقديراً له وغيره على اصفاه . وكان للاورون  
 الثالث عشر نظر خاص عليه ، وارتبط بصداقة متينة مع كرينال . رران وكردينال  
 باريس وسواهما من الرجال الهظام . وما ان رأى الحبر الاعظم البابا لاورون ذلك

التجرد والاخلاص والمقدرة حتى امدته بمساعدة فقالة غير مكثف بالاعجاب والتقدير. وبادرت الطائفة المارونية كلها بروسانها ورهباياتها وشبهها وامتته يبلغ غير قليل من المال يوازي نصف ما جمعه في القرب لتجديد المدرسة المارونية، فتوفى الى احياء المدرسة وايجاد الايراد اللازم لمعاش نحو خمسة وعشرين تلميذاً فيها يتعلمون مجاناً على نفقتها. وتم له ذلك بعبارة بابوية مؤرخة في ٣٠ تشرين الاول سنة ١٨٩١، بُعث بها المدرسة القديمة من لحدها بجميع حقوقها وامتيازاتها وامتيازات طلابها.

وفي الوقت ذاته سمي السعي الجدي لانشاء جمعية راهبات العائلة المقدسة المارونيات وتوفى. وله في هذا السعي الاخير الكثير المحطوره تقارير عديدة ومباحثات مع رؤساء مجمع انتشار الايمان ومع البطريرك الاورشليمي وقتئذٍ على اللاتين، ومع سواهم من كبار الدين ليس هنا مجال ايرادها، بل يكفي الالمح اليها.

وفي تلك الاثناء اسند اليه البطريرك يوحنا الحاج مهام عديدة خطيرة الشأن فقام بها خير قيام: منها ما كان تجاه الخبر الاعظم، ومنها ما كان تجاه الحكومات الزمنية كرئاسة الجمهورية الافرنسية وامبراطور النمسة فرنسوا جوزف واطان بني عثمان في الاستانة، وقد فاز من هذا في مدة اقامته في الاستانة بمساعدة مالية ذات شأن لمدرسة رومية، وحظي من ولي عهد النمسة بقصره في مدينة تيشولي ليكون مصيفاً لتلامذة المدرسة، وقد بقي كذلك الى امد غير بعيد منا. وحضر من قبل الطائفة المارونية مجمع البطارقة الشرقيين في رومية، والمجمع القرباني الاول في القدس. وكان حيث تول واتي وجد ينتهم الفرصة للاهتمام بشؤون طائفته وبلاده سواء كان من الوجهة الدينية او الاجتماعية والسياسية او الاقتصادية باقواله وتقاريره واقواله بكل تجرد واخلاص وجرأة ووضوح وخبرة عملية عز نظيرها. فانفتح بتلك المهام امامه افق جديد متسع وعرف اكبر اكابر العالم، ولاسيما من لهم علاقة مع الطائفة والبلاد فازدادت معارفه وعظمت منزلته وعرفه الذين لهم كل التأثير في ادارة دفة الكنيسة او دفة السياسة العالمية، وصاروا يعطون عليه ويميلون اليه ويقدرونه قدره. ولاجل

هذبا كان يتوفى في صباه بمرعة غربية ما كان يحلم بها من الحلو تلك الشوون  
 عنها قبله . ومن الامور التي توفى فيها اثناء عودته من رومية ومصر في مروره  
 على القدس سنة ١٨٩٥ انه اشترى داراً فسيحة لتزول الزوار الموارنة فيها صارت  
 مركزاً لوكيل بطريركي في القدس الى يومنا هذا ، لانه انف ان تبقى الطائفة  
 المارونية في فلسطين محرومة من مركز يوتسه الزوار من ابناء الطائفة وان  
 يكون الموارنة اجانب اغراباً في القدس وهم اقرب الناس جواراً الى المدينة  
 المقدسة ، وكان لهم فيها مزارات في كنيسة القيامة وسواها من اقدس المزارات  
 فضلاً عن الرعية الكبيرة والمقارن الواسعة .

وبأمر البطريرك يوحنا الحاج زار ابناء الطائفة المارونية المنبئين في جميع  
 انحاء القطر المصري وذلك اثناء عودته من اوربة . فلبث بينهم يتفقد شؤونهم  
 ويعنى بامورهم الروحية افضل عناية فاجبه كثيراً وعرف ما يحتاجون اليه  
 ثبت له انه لا بد من انشاء نيابة بطريركية في مصر ليعنى بامورهم عن قرب  
 وبصورة دائمة .

ان ذلك الفوز السريع في مشاريع الاسقف القيود الناض وتلك المساعي  
 المختلفة المشكورة والتقارير المهمة المشربة بروح المحبة للشعب اللبناني والطف  
 عليه ، المسبوكة بقالب الحكمة والسخاء والاخلاص والتجرد التام . وذلك  
 التمرؤ الى كبار الدين والدنيا قد وجه اليه انظار قداسة البابا لاون الثالث  
 عشر العظيم ، فاستدعه شخصياً سنة ١٨٩٢ الى رومية وعهد اليه بادارة المدرسة  
 المارونية التي احيها مجده ونشاطه وغيره ، اذ تحقق له داسته ان ما من احد  
 يستطيع ان يتمهد ذلك المههد في اول نشأته بالعبارة والحب والنعابة كالمطران  
 الياس الحويك الذي عرف ان يجده بمساعبه المشكورة ومتاعبه المدوحة  
 وسهره الدائم . فكان في تلك المدرسة اباً ومرشداً ومديراً ومدبراً عائشاً بين  
 التلاميذ كأنه تلميذ . وما يروى عنه فيها انه كان اذا اهدى اليه احدهم تفاحة او  
 طيراً او قطعة حلوى لا يرضى ان يأكلها وحده بل يقسمها مع تلاميذ المدرسة  
 اثناء الطعام على المائدة فكان معهم كاصغرهم سناً لا يشر احد بوطأة رئاسته .  
 فاصطلح جميع ما كان مختلاً في المدرسة قبل استلامه اياها وبشرت بمستقبل

باهر، واتضح ان الحويك اينما حل يكون سيد المقام بملمه وفضيلته وحكمته  
وحسنه وطول اناته.

ان المطران الياس الحويك قد ترك آثاراً كتابية في تقاريره الدينية الى  
المراجع الكنسية العالية والمراكز الدينية السامية لا تزال محفوظة تدلّ جميعها  
على خصب حياته الاسبقية بجلال الاعمال المائدة بالخير الحقيقي والروحي  
والزمني على الطائفة والبلاد. ولو كنت ازرخ الوقائع والحوادث اليومية من  
حياة البطريوك الحويك العظيم لما كفايني مجلد ضخم لبرد ذلك ، وانما انا اشير  
بهذه اللوحة اشارة الى ماآي ذلك السيد السامي ، ناظراً الى الاحداث التاريخية في  
حياته نظرة اجالية ، آخذاً منها ما يؤيد الفكرة المومية المقصودة من هذه  
المقالة وهي تحليد كلمة في حقيقة عظمة البطريوك الحويك وفي سر تلك العظمة .  
قال بعضهم يوم ارتقى الى السدة البطريوكية المعبوط الذكر البطريوك  
يوحنا الحاج ، وبث بالمطران الياس الحويك الى رومية لتقديم الطاعة للحبر  
الاعظم واستجلاب درع الرئاسة وبرائة التثبيت ، وللسمي في سبيل تلك المهام  
التي اشرت اليها ، ان البطريوك يريد ان يبعد الحويك عن بكركي ليغير  
سياسة البطريوكية التي كان يديرها الحويك باسم البطريوك مسعد ، واعتقد  
الكثيرون ان البطريوك باعتماده على تلك الخطوة تغير على الحويك او انه غير  
راض عنه . بيد ان الحقيقة هي غير ما يتوهم الناس وفي سوى ما بينونه  
على الظواهر ويملقونه على الاقاريل . ان البطريوك يوحنا الحاج الثاقب  
النظر البعيد الهمة المميّق النور ، كان اعرف الناس بشهرة الحويك  
فراى ان سفره الى رومية يكون خير الطائفة والبلاد ولازدياد موارفه  
الشخصية واختباراته ، فكان آتة في يد العناية الالهية التي ارادت ان تكتل  
الحويك وتجمله صالحاً للبطريوكية المارونية ليخلف البطريوك يوحنا الحاج ويكون  
صلة بين القرن التاسع عشر والقرن العشرين ، وتحقق بواسطته جلائل الامور .  
فالخبرة التي اكتسبها في لبنان طيلة اقامته في البطريوكية لم تكن كافية في  
الشؤون الخارجية الواجبة للمعاطة مع اساطين السياسة في فرنسة والاستانة ،  
وكبار رجال الدين في رومية وغيرها ولاسيا مع امام الاجبار .

ومن اسباب فشل بعض الرؤساء في الادارة الكنسية او المدنية ، وخاصة في شرقنا ، الطفرة في تقلد الوظائف دون المرور في جميع ادوار السلك الاداري للتمرن والتعرف على الناس .

ان الطفرة قد تجوز احياناً مع التواضع ، ولكنها غير محمودة حتى في هذه الاحوال ، لان النابغة يكون نابغة في فن او في امر واحد اما سياسة الناس ان في الدين وان في الدنيا فلا بد لها من نبوغ في جميع الشؤون . وما ذلك الا لان الرئيس يكون مرجعاً لطبقات من الشعب مختلفة العقول والتهذيب والمقدرة والرقى والحاجات فيلزم لادارتها من يكون قد تقلب في مناصب عديدة وتمرن على جميع الشؤون الاجتماعية ، ليستطيع ان يفهم حاجات المرؤوسين وعاداتهم واخلاقهم ويولهم ، شأنه في ذلك شأن ربان السفينة الذي لا يُقلد وظيفة الربان منفرداً الا بعد ان يكون تمرن تحت يد ربان ماهر سنوات واجتاز البحار مراراً في هدونها وفي هيجانها وعواصفها ليصير خبيراً بطرقها متحققاً ان يوثقن على ارواح الناس وعلى اموالهم !

كان الحويك يشر بالمشاورات والمضادات في الاقوال والافعال منذ كان كاهناً الى ان صار اسقفاً . غير انه ما كان يظهر غضباً ولا يُبطن حقداً ، بل كان يتجاوز عن هفوات الناس ويستفيد منها ويرى بها اصبع العناية الالهية ويتوقع من ورائها نتيجة لا ينتظرها البشر ولا يحسبون لها حساباً . ولهذا ما رأيناه في حياته مشتتلاً بالانتقام من احد ولا بالدفاع ضد احد من مناوئيه ، بل كان دائماً متبساً يقول : « الله يدبر . دعوا العناية الالهية تشتغل وحدها فهي التي دبّرت ما جرى خيراً ما كنا نعرفه ولكن سنلسمه بايدينا غداً . » وهكذا كانت تحقق العناية الصمدانية آماله وإيمانه بها .

فما اجل طرق العناية الالهية انها كلها حكمة وسلام . فهي تستخدم في اكثر الاحيان ضغائن الناس وقصر نظرهم لتوصل الى غاياتها وتعد رجالها في السكينة ليوم العاصفة ، وفي العاصفة ايوم الطائنة ! « فتحصد من حيث لم تررع وتجمع من حيث لم تبذرا »<sup>١١</sup>

(لها بقية)